أ.د. صباح زنكنة
باحث اسلامي - ايران

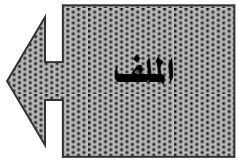

حلول عملية للتواصل بين المذاهب الاسلامية

المقدمة

حينما نقول حلول عملية لتحقيق التواصل بين المذاهب الإسلامية، فإننا نقصد أتباع المذاهب الإسلامية، والذين يمثلون تلك المذاهب من علماء وأمراء وشعوب، ولا نقصد كتب ونصوص المذاهب المجردة.

وعند ورودنا هذا البحث الحيوي، فان ذلك يعني قبولنا بالأساس المتفق عليه، وهو ان أبناء الأمة الإسلامية من أتباع المذاهب المختلفة، إنما يشكلون أمة واحدة، ويأتمرون بأمر الباري عزوعلا «واعتمصوا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخواناً»[1].

ويبقى أن نتلمس حلولاً لإزالة الفرقة التي ابتليت بها الأمة، وإزالة العوائق من الطريق، لينقشع الضباب، وتشرق الحقيقة التوحيدية.

وبعد ذلك، لابد من تطوير مفاهيم هذا التقارب والإرتقاء به إلى مستويات ارفع، والى مساحات اشسع، وأيضاً استقصاء السبل والآليات في هذا الصدد.

لماذا التفرقة والتباعد؟

نفترض أن أسباب التفرقة معروفة أو أصبحت معلومة. وهي إما اسباب نفسية وذاتية تنبع من الجهل أو الأغراض الدنيوية أو الحسد وسائر الأمراض والأنحرافات الشخصية. أو عوامل موضوعية تنشأ عن سوء التربية والتعليم، أو الأغراض السياسية المحلية والإقليمية أو العالمية.

وهذه التفرقة (لا الإختلاف الطبيعي) تزرعها أجهزة وعوامل عديدة، بين أبناء الأمة الإسلامية، لتشتيت القوى وهدر الطاقات، والتسلط على المجتمع المسلم. فحين لا تكون هناك تفرقة، فإن أبناء المجتمع سيفكرون بمصالحهم وكيفية تطويرها، وبناء مجتمعهم وسبل الإرتقاء به؛ ويتدارسون آليات الحفاظ على ثرواتهم ومنجزاتهم المادية والثقافية والمعنوية.

لماذا التقارب والتقريب؟

لأن التقارب والتعارف امرٌ الهي؛ والاعتصام بحبل الله، والتوحد، فرضٌ في القرآن والسنة الشريفة. أما التفرق فهو امرٌ مذموم ومرفوض إسلامياً.

إما على المستوى الإجتماعي، فإن القوة في التوحد والإجتماع؛ والبركة في الجماعة. وهذه الجوانب ايجابية.

وعلى الصعيد الآخر، فإن التحديات التي تواجه العالم الاسلامي تفرض التوحد والتنسيق والانسجام.

وهنا تقف امتنا الإسلامية لتختار الطريق: إما الأزدهار والتقدم وهو لا يأتي إلا عن طريق الوحدة والتقارب. أو التخلف والإنحطاط وهو النتيجة الطبيعية للإختلاف والتناحر.

ولا نشك أن الاولويات والثوابت بين المسلمين، كثيرة وشاملة لجميع نواحي الحياة

الثقافية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية. وان ما تتصارع عليه الشعوب والأفراد، لا أساس له من الدين الإسلامي والتعاليم الإلهية.

اول الطريق

ان الخطوة الاولى تكمن في مضمون الآية الكريمة «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[٢].

وهذه الآية المباركة تعتبر المفتاح الرئيسي للتغيير، والقانون الإلهي الثابت.

ومن هذه الآية نستشف ان التغييرات المفروضة من الخارج، لا يمكن ان تؤتي ثمارها، ان كانت على المستوى الفردي أو الجماعي؛ سياسياً أو إقتصادياً أو عسكرياً.

وهذا التغيير ان لم يحصل، فإن الميل إلى التوحد والتقارب ايضاً لن يحصل، وان حصل، فإنه لن يدوم.

والتوحد والتقارب ربما يأخذ عدة مستويات ادناها عدم الصراع وإزالة الضغائن والعداء؛ يأتي بعدها التنسيق ويرقى إلى مرحلة التعاون والتكامل ، ثم يليه التوحد. وما نشاهد من حالات تطور الجامعة العربية فإنما يصب في الإتجاه المعاكس الذي اراد توحداً في جميع المناهج والبرامج والسياسات والمقاصد، ولكن التجربة تشير إلى تراجع في المسيرة والإكتفاء بالتعاون والتنسيق، وهذا أيضا يبقى حبراً على ورق.

وما ندعوا اليه هو أياً من تلك المراحل الممكنة عملياً فلنحققها، ونسعى إلى المرحلة الاعلى.

والوحدة التي ندعوا اليها هي الوحدة في الأهداف والغايات والمقاصد، والأصول والاعتقادات؛ إما المناهج والوسائل، فنتركها للأفراد والجماعات والدول لتختارها كلاً حسب ظروفها وقدراتها ومرحلة تطورها.

ولكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية ان يحتفظ بخصائصه ومميزاته، وهذه الخصائص يمكنها ان تحقق مزيداً من الإثراء والغنى الثقافي والإجتماعي، وهو امرٌ مطلوب.

والتعارف المذكور في الآية الكريمة.. «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» يشير إلى هذا الإتجاه بإحترام خصائص كل شعب من شعوب العالم والأمة الإسلامية.

دور الحكام

هل التعاون والتوحيد يزيل سلطات وحكومات العالم الإسلامي ويجعلها واحدةً بيد حاكم واحد؟

أعتقد ان الرواية الشريفة التي تقول بأن صلاح الأمة، يأتي بعد صلاح الفئتين: العلماء والأمراء، تشير إلى عوائق في طريق التوحد أيضاً.

يقول جمال الدين الاسد آبادي (الأفغاني): «لا التمس بقولي هذا ـ في الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية ـ ان يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني ارجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم، الدين»[٣].

ويظهر ان الإمام الافغاني، ونتيجة اقترابه من الحكام، ادرك أن إحدى اهم عوائق التوحد، هو خشية الحكام من ان يفقدوا سلطانهم اذا مارضوا بالتوحد. ولذا فإنه يفتح طريقاً لاحباً هو أن تكون الوحدة في المقصد الا وهو تطبيق القرآن، وليس في الشخص.

وهذه النقطة تثير مسألة هامة جداً وهي، الإهتمام بعلم النفس السياسي في الخطاب، بما لا يخلق عقبات، بل ويمهد الطريق أمام المصلحين.

والطريق العملية لتوحد الحكام، هو سلوك سبيل التكامل الاقتصادي عبر برامج تنموية تجتذب إليها جهود المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية وتصب الجهود في الأطر الأيجابية بدل تضييعها في الصراعات والنزاع. وواضح ان موقف الحكام من موضوع التقريب، ينعكس على مواقف الشعوب وحتى العلماء.

والسبيل الآخر أمام الحكام، هو التركيز على تنفيذ البرامج التعليمية والعلمية لبناء

محور التنمية إلا وهو الإنسان. وبتوفر الإنسان المتعلم المنفتح، فإن تحقيق التعاون والتكامل سيكون أسهل وأسرع.

وقديماً قيل: ان «الإنسان عدو ما يجهل»، فإذا ازيل الجهل، وحل محله العلم، فإن العداء سيزول. وهذا يصح على جميع انواع العلم: علم ابناء المذاهب، بما في المذهب الآخر بشكل صحيح وكامل، سيزيل الأوهام والظنون، ويؤدي إلى الإعجاب والتعاون والتفاهم.

وعلم شعب بما لدى الشعب الآخر من امتيازات وخصائص، يساعده على التزود من تلك الخصائص.

وعلم رجال الاعمال بما في البلد الآخر من طاقات واسواق وفرص استثمارية واحتياجات، يساعده في تجهيز نفسه وبرامجه للإستفادة من تلك الفرص.

ومهمة الأمراء والحكام تكمن في تسهيل الزيارات واللقاءات بين أبناء الشعوب، وطبعاً في إطار من التخطيط الصحيح والبرمجة الشاملة.

ولابد من الإشارة إلى حساسية أبناء المذاهب الإسلامية تجاه فتح المجالات الإقتصادية أمام اتباع الأديان الأخرى واغلاقها أمام المسلمين، من قبل الحكومات.

دور العلماء

لاشك أن عموم الناس تنظر إلى ما يصدر من العلماء من خطاب وسلوك، فيتأثرون به ويتخذون سلوكهم الذي يمكن ان يحمل طابع الإفراط والتشدد.

فمن ناحية، إذا كان خطاب العلماء تشكيكياً في مذهب الآخرين، او إعتقاداتهم، فان الجمهور سيذهب إلى أبعد من ذلك ويتخذ موقفاً متشدداً ومتعصباً من أتباع المذاهب الاخرى.

وإذا خشي العلماء من منجزات وإجتهاد العلماء الآخرين، فإنهم سينكمشون

وسيحاولون اخافة الجمهور من التواصل مع أتباع المذاهب الأخرى.

وقد يكون الحل لهذا التخوف، هو تدريس المذاهب الرسمية المعترف بها، في المدارس الدينية والحوزات العلمية والجامعات المختصة.

ومن الأساليب العملية التي يلمسها أبناء الشعوب الإسلامية، هو السلوك العملي من قبل العلماء تجاه علماء المذاهب الاخرى. فمثلاً الصلاة خلف أئمة المذاهب الأخرى سيزيل الكثير من الشبهات والاتهامات؛ كما أن ذكرهم للروايات عن طريق ائمة المذاهب الاخرى سيفتح الأذهان أمام إمكانية إعتبار تلك الروايات وصدقيتها وصحتها. وهنا نقول: ان مثقال سلوك، خيرٌ من قنطار كلام.

وطباعة الكتب الروائية والفقهية والاعتقادية، بشكل يجمع بين المذاهب الإسلامية، سيسهل التقارب بشكل مبدئي وفعال.

الهوية الإسلامية

لقد تطورت الأحداث والظروف كثيراً في العقدين الأخيرين.

فبعد الثورة الإعلامية والتقنية المعلوماتية، انتشر الوعي بالذات، والوعي بالتحديات، مما ساهم كثيراً في إعادة تبلور الهوية الإسلامية لأبناء الأمة في مشارق الأرض ومغاربها.

كما وان ظهور التحديات الثقافية والإجتماعية، زاد من إحساس المسلمين بهويتهم وتماسكهم بهذه الهوية، وزوال الفوارق المذهبية. ولنذكر بعض الأمثلة على ذلك: فما صدر من فتاوى ومواقف تجاه نشر وتوزيع كتاب سلمان رشدي، عبر عن وحدة المواقف ووحدة التحديات، وهو ما يمكننا وصفه بإحياء الهوية الإسلامية بين شتى أتباع وعلماء المذاهب الإسلامية دون تمييز.

وهذا ما يعبر عنه الحديث الذي سار كالمثل «الحمد لله الذي جعل اعداءنا من الحمقى».

وحينما ظهرت محاولات التطهير العرقي في البوسنة والهرسك، وجدنا أن مسلمي تلك البلاد أيضاً قد عادوا إلى التماس هويتهم والتي عبروا عنها عملياً بالعودة إلى الحجاب وإرتياد المساجد. كما ان المسلمين برمتهم، من جميع المذاهب الإسلامية، اصطفوا صفاً واحداً في الدفاع عن حقوق مسلمي البوسنة والهرسك في تقرير المصير والحفاظ على هويتهم ووجودهم.

ومقابل تحديات العدوان الصهيوني المتكرر على الفلسطينيين، وأخيرا ومكرراً ضد اللبنانيين، وجدنا الأمة الإسلامية في أنحاء العالم، وبكل فئاتها ومذاهبها وتياراتها، تقف متوحدة ومتوثبة للدفاع عن حقوق اللبنانيين والفلسطينيين، وكادت الهبة الإسلامية تطيح بالعديد من السياسيين.

ونفس الشيء حدث عند نشر الرسوم الكاريكاتيرية المهينة، وعند تصريح الرئيس الامريكي جورج بوش عن الإسلام والحروب الصليبية، وثم ما اتبعه من تصريح عن «الفاشية الإسلامية».

وربما لن يكون خطاب البابا بنديكت السادس عشر، بعيداً عن هذا السياق، والذي قد يكشف عن سلسلة من التحديات والإختبارات، والتي اظهرت تقارب بل وتوحد المسلمين في مواقفهم وسلوكهم. فهل يبقى تساؤل عن السبل العملية للتواصل بين أتباع المذاهب الإسلامية، وهاهم يتوحدون ويعبرون عن مواقفهم وآرائهم بكل صلابة وتماسك؟

وليس لدي ادنى شك أن هذه التطورات وهذا الوعي، وهذا التراكم الثقافي والحضاري، سيخلق آلياته المناسبة والبديعة، وحينذاك سيسقط ما في أيدي الكثيرين.

الصراع الطائفي غطاء استعماري

ان ما تشهده الساحة العراقية، وبعض المحاولات في لبنان، تشير إلى شدة الأزمة

التي تعاني منها القوى الإستكبارية، حيث انه لجأت إلى افتعال حملات وتفجيرات وإرهاب، حاولت تصويره بأنه صراع طائفي، بينما نرى أن إجتماع علماء وأبناء المذاهب الإسلامية في هذين البلدين، ادّى إلى توافق على احترام الإنسان اللبناني والعراقي وصيانة وجوده وعرضه ودمه وماله. إذاً لا يبقى الا القوى الطامعة في التسلط على هذين البلدين والتي تصورت انها باستخدام أفراد من ادعياء أتباع احد المذهبين، للهجوم على أتباع المذهب الآخر، فان الصورة ستكتمل ويصدق الآخرون ان هناك صراعاً مذهبياً وطائفياً وجميع المعلومات تؤكد حضور الرموز السياسية المحلية والإقليمية التي تستظل بالمظلة الأمريكية والبريطانية في هذه المسرحية المفضوحة.

ولن تكون خاتمة هذه المهزلة، بافضل من نهاية العدوان الإسرائيلي على لبنان، او التورط الأمريكي في العراق.

«ويمك رون ، ويمكر الله، والله خير الماكرين».

وان وعي الامة الإسلامية، كفيل بإسقاط هذه الأساليب.

الهوامش:

١ – آل عمران/ ١٠٣.

٢ – (الرعد/ ١١).

٣ – محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغرب ص ٧٩ نقلا عن مجموعة العروة الوثقى.